

المبحث الثالث
عهد الفتح الإسلامي للأندلس
(92-95هـ / 711-714م)

إن فكرة فتح الأندلس كانت لدى القائد موسى بن نصير منذ أن عين والياً على الشمال الأفريقي من قبل والي مصر (عبد العزيز بن مروان) فقد تبادلوا الرسائل بينهما حول قرار موسى بن نصير بفتح الأندلس مما أجابه بذكر أبرز معوقات الفتح فكانت بما يأتي⁽¹⁾ :

1- عدم امتلاك السفن الكافية للعبور بها من المغرب إلى الأندلس .
2- عدم التكافؤ في عدد الجيش الإسلامي إذا ما قورن بأعداد تجهيزات القوط الغربيين التي تباعض أضاع عاف أدد المسلمين .

3- عدم المعرفة بطبيعة البلاد الجغرافية والمعلومات الأولية .

4- هنالك جزر بين المغرب والأندلس تحتاج إلى تأمين لغرض إتمام عملية الفتح مثل جزيرة سردينيا ومايوركا وشبه جزيرة سبته .

وصلت هذه المعلومات إلى الخليفة الأموي في الشام (الوليد بن عبد الملك) فرفض المخاطرة بجيش المسلمين في البحر وعدم القدرة على معالجة هذه الصعوبات وحمل المسؤولية للقائد موسى بن نصير لحلها والذي استطاع خلال ثلاث سنوات (89-92هـ / 708-711م) أن يجد الحلول لهذه المعوقات فقام بما يأتي⁽²⁾ :

1- بناء ثلاثة موانئ ومنها ميناء القيروان وبناء أسطول بحري .

2- استطاع أن يكسب قبائل البربر مما ازداد عدد جيش المسلمين بأكثر من مئة ألف من البربر وتعيين زعيم منهم وهو طارق بن زياد قائد الجيش عليهم .

3- استطاع الاستحواذ وفتح جزر البليار وسردينيا ومايوركا، وبذلك أمّن على جيش المسلمين من أي خطر خارجي .

إن لشخصية القائد موسى بن نصير أثراً كبيراً في عملية الفتح الإسلامي فعلى الرغم من بلوغه السبعين من العمر إلا أنه كان لديه هدف واستراتيجية عسكرية وتنسيق دقيق وتذليل الصعوبات لنجاح عمليات الفتح⁽³⁾ .

تبادل والي شمال أفريقيا موسى بن نصير الرسائل مع الخليفة الوليد بن عبد الملك حول فتح الأندلس فكان جواب الخليفة : " أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال "⁽⁴⁾ .

ففي عام (91هـ / 710م) أرسل سرية استطاع إلى شبه الجزيرة الأيبيرية تتكون من أربع مائة جندي مشاة ومائة فارس بقيادة (طريف بن مالك) لاستكشاف هذه الأرض من حيث السكان، والتضاريس الطبيعية، ومدى القوة العسكرية، ونزل بجزيرة سميت بعد ذلك باسمه قرب الجزيرة الخضراء بجزيرة طريف، وبعد رجوعه ونجاحه في هذه المهمة زوّد القيادة بمعلومات دقيقة بأنه لا توجد خطورة على جيش المسلمين أثناء العبور البحري⁽⁵⁾ .

فاستطاع القائد موسى بن نصير أن يذلل تلك الصعوبات ولم تبق أمامه سوى شبه جزيرة سبته على الطرف المغربي، وحاكمها يوليان لأنها محصنة ومحاطة بالجبال من جهة والبحر من جهة أخرى لذلك من الصعب الدخول إليها فأمر بحرك لجيش المسلمين بأعداد كبيرة نحو شبه

(1) مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص153 ؛ العامري، محمد بشير حسن راضي، تاريخ بلد الأندلس في العصر الإسلامي، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، 2014م، ص18 .

(2) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص8-10؛ نصر الله، سعدون، تاريخ العرب السياسي في الأندلس، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، 1998م، ص17 .

(3) السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، الطبعة الأولى، دار المدار الإسلامي، بيروت - لبنان، 2004م، ص38-46 .

(4) الحميري، صفة جزيرة الأندلس، ص8 .

(5) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص5 . السامرائي، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص28 .

الجزيرة الايبيرية لما فيها من مخاطرة، وفي الوقت نفسه مجازفة، غير أن هناك حدثاً غير مجرى المسار التاريخي عندما أرسل حاكم سبته يوليان برسالة إلى قائد المسلمين موسى بن نصير بموافقته لتسليم مدينة سبته وتسهيل دخول الجيش بتزويده بمراكب بحرية لإنقاذ البلاد من ظلم وجور الملك لودزيق والتعهد له بعدم مهاجمته من الخلف، فأفاد المسلمون من العداوة التي كانت بين يوليان حاكم سبته ولودزيق ملك بلاد القوط الغربيين، بدافع تغيير نظام الحكم وإرجاع حقوق أولاد غيطشة المسلوبة⁽⁶⁾.
فتح الاندلس:

تولى طارق بن زياد قيادة جيش المسلمين وأغلبهم من قبائل البربر في عام (92هـ / 711م) منطلقاً من مدينة سبته بمراكب تجارية بمساعدة حاكمها يوليان بعبورهم مضيقاً سمي فيما بعد بمضيق جبل طارق واختاروا مكاناً استراتيجياً في منطقة وعة تحيط بها الجبال متخذاً من أسلوب التخفي والمباغته على شكل دفعات، فكانت الدفعة الأولى سبعة آلاف جندي وبعدها أرسل له قائده موسى بن نصير بخمسمائة ألف جندي وأغلبهم من البربر فأصبحوا اثني عشر ألف جندي مما جعل منطقة جبل طارق قاعدة عسكرية ثابتة تنطلق منها الجيوش الإسلامية لاستكمال عمليات الفتح الإسلامي، وكان جيش القوط الغربيين يقدر بمئة ألف مقاتل⁽⁷⁾.

ساعد اليهود جيش المسلمين الذين كانوا يعيشون داخل شبه الجزيرة الايبيرية المضطهدين من قبل نصارى الإسبان ويعرفون جيداً الصفات التي يتصف بها المسلمون في التسامح الديني لما قاموا به من فتوحات سابقة في الشرق لاسيما عند فتحهم القدس. وذكرت بعض الروايات أن القائد طارق بن زياد تعمّد حرق السفن لإجبار جيش المسلمين بعدم العودة وهي روايات ضعيفة وغير مقبولة لعدة أسباب :

أ- إن هذه المراكب ليست ملكاً للمسلمين بل هي تعود لحاكم سبته يوليان .

ب- إن حرق السفن مجازفة وفيها خطورة على جيش المسلمين .

بل قام طارق بن زياد بتذكير جيش المسلمين بخطورة الموقف وعدم التراجع بقوله : " ايها الناس: اين المفر. البحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم والله الا الصدق والصبر..."⁽⁸⁾، ثم توجه طارق بن زياد بجيشه الكلي البالغ اثني عشر ألف جندي وفارس بعدما انضمت إليه الحملة الاستطلاعية ليصل إلى (وادي برباط في مدينة قادش) وبذلك اختار أرض المعركة فعندها وصلت الأخبار لقائد القوط لودزيق بقدم المسلمين الذين لهم هبة وسطوة لأنهم جاؤوا بروح معنوية عالية، فتقدم جيش القوط الغربيين بقيادة لودزيق بمائة ألف مقاتل قاطعين مسافة طويلة من الشمال في طليطلة إلى الجنوب في برباط مما أرق الجيش في أثناء سيره إلى موقع المعركة، فكان زمام الأمور بيد طارق بن زياد الذي اختار موقعاً جغرافياً مميزاً فوضع جيشه بين الجبل على جهة اليمين ليكون حامي جيش المسلمين والبحيرة على جهة اليسار⁽⁹⁾. أما مجموعة طريف بن مالك فتمركزت في الخطوط الخلفية من جيش المسلمين لتمنع أية محاولة التقاف من جهة البحيرة، واستعد جيش المسلمين للقتال المتمركز على هضبة مرتفعة قليلاً عن السطح، فعندما وصل جيش القوط المرهق الواقف على أرض منخفضة عن السطح مواجهاً جيش المسلمين الذي كان مستعداً للمعركة بوصوله قبل يومين من بدئها عندها التقى الطرفان في 28 رمضان لعام (92هـ / 711م)

(6) ابن القوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس، ص34 و35 ؛ ابن خلدون، العبر، ج4، ص117 .

(7) السلمي الاندلسي، عبد الملك بن حبيب (ت: 238هـ/ 852م)، كتاب التاريخ، وضع حواشيه: سالم مصطفى البديري، الطبعة الاولى، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1999م، ص124. ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص192 و194. ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص153 .

(8) السلمي الاندلسي، كتاب التاريخ، ص124.

(9) ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، ص194-197 ؛ الحجى، تاريخ الأندلس، ص62 و63 .

(10) . أمر القائد طارق بن زياد بترديد آية من القرآن الكريم ليرفع بها الروح المعنوية للمقاتلين بقوله تعالى :

[مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا] (11)

والآية الكريمة: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ] (12)

استمرت المعركة ثمانية أيام، فقد هربت أعداد كثيرة من جيش القوط وهرب قائدهم لودريق، ويقال غرق في بحيرة أو رمى نفسه من فوق جبل وكان يعتقد بحتمية كسبه للمعركة وقدومه على سرير من ذهب يحملوه جنوده كالعبيد، فضلاً عن جلبهم الحبال لربط المسلمين بها كأسرى بعد انتصارهم في المعركة مما أثار غضب جيش المسلمين هذه المناظر، وتعمد طارق بن زياد إطالة المعركة لكسب الوقت لأن جيش القوط أعدادهم كبيرة ويحتاج إلى طعام وشراب، وعلى الرغم من الانتصار الساحق لجيش المسلمين واستحواذه على أعداد من الخيول غير أنه استشهد منهم ثلاثة آلاف مقاتل نتيجة تلك المعركة التي سميت فيما بعد بمعركة وادي برباط أو وادي لكة أو البحيرة ، واستمر طارق بن زياد بما تبقى من جيشه متجهاً بسرعة نحو طليطلة عاصمة القوط فاتحاً العديد من المناطق والمدن عنوة أو سلماً بعقد الصلح بعدما أصاب القوط بهلع وخوف شديد، وخضع الجنوب كله للفتح الإسلامي (13)

إن هذا الانتصار الكبير الذي حققه الجيش الإسلامي على الرغم من عدم تكافؤ الفريقين، إلا أن قوة الإيمان عند المسلمين أحدثت معجزة لأنها تحولت إلى طاقة فاعلة رفعت معنويات الجند وأربكت الطرف الآخر (14) .

(10) ابن عذاري، البيان المغرب، ج2، ص9 ؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص154؛ ينظر ملحق رقم (1) خريطة جغرافية توضح فتح المسلمين للأندلس .

(11) القرآن الكريم، سورة الأحزاب : الآية 23 .

(12) القرآن الكريم، سورة التوبة : الآية 11 .

(13) السلمي الأندلسي، كتاب التاريخ، ص124 و125. المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت: 647هـ/1249م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه : خليل عمران دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 2005م، ص10-11؛ المنصور، الطبعة الثانية،

Ferrin. historia general de al-andalus, PP. 156-165.

(14) العتبي، محمد سعيد ومحمد بشير العامري، تاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي، بلاط، دار النشر الجامعية للطباعة والنشر والترجمة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد- العراق، 2002م، ص227 وما بعدها .